# الفصل السادس

## حماية المجتمع المدني من الانتكاس الكحولي

obeikandl.com

# حماية المجتمع المدني من الانتكاس الكحولي

## العوامل الاجتماعية والنفسية والروحية

إنّ العوامل النفسية والاجتماعية والروحية التي حققت الإقلاع الطوعي الجماعي والامتثال لأمر الله هي بعينها إلى حدٍ كبير العوامل نفسها التي استخدمها الإسلام لحماية مجتمع المدينة المنورة من الارتداد إلى تناول المسكرات. لذلك فسوف نناقشها مع غيرها من العوامل ولكن من زاوية الحفاظ على طهارة المجتمع المدني المبارك وحراسته من غول الكحول. وسوف نعرض الموضوع من وجهة نظر الدراسات الإنسانية الحديثة ونقارن إنجاز المجتمع المدني في الحماية بما يتم في هذا العصر من مجهودات في حماية المسكرات يذهب أكثرها أدراج الرياح.

ولنبدأ بالعامل الديني والروحي فهو الركيزة الأساسية التي تحمي الجماعة والأفراد من إغراءات العودة للشرب المحرم، فالحماية الحقيقية هي التي تقوم في جذر قلوب الرجال الذين تربوا على طاعة الله ورسوله.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:31]. هذه الروح هي الأساس الذي يقوم عليه بناء سور الحماية بالقوانين والتشريعات، وهي التي أكسبت المؤمنين في المدينة رفضاً وكرهاً عميقاً للخمر التي لعنها الله وأمر باجتنابها حتى أصبح مدمن الأمس لا يرضى بخيرات الدنيا جميعاً مقابل شربه لها، بل

يفضل تناول القاذورات والمقززات على ابتلاع نقطة منها. فهذا أبو موسى رضي الله عنه يقول: «ما يسرني أن أشرب نبيذ الجر ولي خراج السوادين»[1]، وذلك سعد بن أبي وقاص وقد كانت له ضيعة حملت عنباً كثيراً فكتب له أمينها: «إني أخاف على الأعناب الضيعة فإن رأيت أن أعصره عصرته»، يردّ على هذا الأمين بقوله: «إذا جاءك كتابي هذا فاعتزل ضيعتي، فوالله لا أئتمنك على شيء بعده أبداً»، فعزله من ضيعته لما في ذلك من شبهة[2]. أما مورق رضي الله عنه فيؤكد بقوله: «لأن أشرب بول حمار أحبّ إليّ من أن أشرب شربة فضيخ»[3]. لكن أبا حفص عمر بن الخطاب كما يتوقع الدارس لسيرته فيفضل تجرع كأس المنية على شرب كأس النبيذ...، فعن أبي تميم أنّ عمر بن الخطاب قال: «لأن تختلف الأسنة في جوفي أحبّ إليّ من أن أشرب نبيذ الجر»[4].

ليس هذا فحسب، بل أصبح المرء منهم وكان بالأمس يستمتع "بالصبوح" و"الغبوق" يرى شرب الخمر والاعتماد عليها ضرباً من الوثنية! فهذا أبو موسى يقول: «ما أبالي شربت الخمر أم عبدت هذه السارية دون الله»[5].

---

(1) رواه الإمام أحمد في: "كتاب الأشربة"، تحقيق: عبدالله بن حجاج، القاهرة: طباعة المركز السلفي للكتاب، 1981.

(2) عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، أخرجه النسائي.

(3) عن أحمد بن حنبل "كتاب الأشربة"، مصدر سابق.

(4) أحمد بن حنبل، "كتاب الأشربة"، مصدر سابق.

(5) رواه النسائي.

إنّ مثل هذا القول وهذا الوجدان وهذا السلوك لا يصدر إلا عن روح إيمانية عالية ملأت الجوانح حتى فاضت على الجوارح والأعمال وقلبت موازين الجاهلية رأساً على عقب. فهي ليست بحاجة لقوانين رادعة ولا إرهاب حكومي حتى تستقيم على إقلاعها ولا تنتكس في حمأة السكر. وهذه الروح كانت هي الغالبة على أهل ذلك المجتمع المدني الطاهر، وبصفة خاصة على تلك الصفوة الرشيدة التي أحاطت بالرسول الكريم ﷺ وناصرته.

لكن المدينة لم يكن سكانها كلهم من هذا الطراز وإلا لما صلحت كأنموذج يُحتذى به إلى آخر الزمان، لأنّ مجتمعها الرباني حينئذ لم يكن ليحتاج إلى تشريعات المنع والحدود. لكن الله -تبارك وتعالى- أراد لمجتمع خير القرون أن يتألف كغيره من المجتمعات من شتى أصناف البشر، وإن اختلفت النسب، حتى يكون قدوة ومثالاً لأهل الأرض لا صنواً لأهل السماء!

فهناك مجموعة ثانية، لعلها أقل عدداً من المؤمنين العاديين ممن أجّل الامتناع عن الخمر إلى اللحظات الأخيرة وتحمس بعد ذلك في بادئ أمره للمنع الكامل والتحريم الشامل، لكن مرور الوقت وأعراض الانقطاع ومشاكل الحياة ربما تتكالب عليه جميعاً حتى تراوده نفسه "للصبوح" و"الغبوق". فهؤلاء بحاجة ماسة إلى ما يقوّي عزائمهم ويشد من أزرهم ويثبتهم على جادة الإقلاع، ماذا قدّم الإسلام لهؤلاء وما هي الدروس المستفادة من هذه التجربة الإسلامية على هذا المستوى؟

وهناك الأعراب والبدو الذين يدخلون المدينة ويخرجون منها ويتزودون بالمعرفة الضرورية من الكتاب والسنة وحدود ما أنزل الله على رسوله. وهناك قلة من أهل المدينة "مردوا على النفاق والكفر"، قلوبهم غلف لا يتسرب إليها نور الإيمان، لكنهم ربما يسعون جاهدين بمعاونة حلفائهم من اليهود ليجدوا ثغرة يتسرب منها الكحول مرة أخرى إلى المجتمع المدني الطاهر، ولا بد أنّ من هؤلاء وأولئك من كان دافعه لذلك –بالإضافة إلى الكيد للإسلام– استرجاع ما افتقده من أموال طائلة كان يجنيها من بيع الخمور المحلية والمستوردة من الشام. فكيف استطاع الإسلام أن يكفي الجماعة المسلمة شر هذا الكيد؟!

## أ– الإيمان حجر الزاوية في منع الانتكاس

اعتمد الإسلام أولاً في وضع أساس متين لبناء سور حماية الإقلاع على تعميق الإيمان والتقوى في نفوس المؤمنين الذين يشكلون الطائفة الظاهرة المنتصرة في المدينة المنورة. التقوى التي تجعل قلب المؤمن متيقظاً بذكر الله، في شوق متزايد إلى مقامات روحية أرفع ومراتب أرقى. وهذه هي الصفوة المؤمنة وهي القدوة التي يتشوق إلى معاييرها جميع المؤمنين.

والإيمان والتقوى بهذا المستوى يشيعان في المجتمع بأكمله جواً من الاستقرار النفسي والود والسكينة والطمأنينة التي تقتلع دوافع السكر والشرب من جذورها النفسية. فضغوط الجاهلية ومنافساتها القبلية وصراعاتها العصبية التي كان يراها المرء كالجبال، والتي كانت تهدّ من كاهله فيغرق نفسه في الكحول أملاً في التقوّي على مجابهتها أو هرباً

منها، تصبح بعد الإيمان كالحصى الذي يدوسه بنعليه وهو يمشي مرتفعاً من مقام إلى مقام أعلى في رحلته الروحية إلى الله تعالى، حتى لتبدو له هذه الضغوط والصراعات عندما يتذكرها بعد إسلامه كمنازعات الأطفال ومشاكلهم التافهة.

ومما تجدر إليه الإشارة أنّ أهمية الإيمان في علاج الإدمان والتغلب على دوافع الانتكاس لشرب الكحول تظهر قوية من جديد في عالم اليوم. وقد لخصنا طرفاً من ذلك في حديثنا عن أثر الدين على تناول المسكرات فيما سبق، وسنعرض لأهمية الدين في محاربة الانتكاس فيما سيأتي من صفحات، ويكفي أن نذكر هنا أنّ الأبحاث التجريبية حتى بالنسبة للديانات المنحرفة تؤكد أنّ ما يسمونه بالعامل الإيماني Faith Factor له قدرة فائقة، ليس فقط في علاج الاضطرابات العضوية السيكوسوماتية، كارتفاع ضغط الدم والقرحة وبعض الأمراض الجلدية والربو وغيرها من الاضطرابات[6].

على أنّ للإيمان والتقوى ثماراً هامة أخرى تثبت الإقلاع وتحمي من الانتكاس.. أولها أثر الشعائر الإسلامية المنبثقة من هذا الإيمان الذي يرفع راية المؤمنين عالية ظاهرة في المجتمع فيصبح السكر فيه جرماً عظيماً والخمر نجاسة يبترأ منها الذوق العام.

ولنبدأ بالفائدة العظيمة التي يجنيها المؤمن من القيام بشعائر الإسلام كالصلاة والصوم والحج والعمرة وصلة ذلك بعلاج دوافع الشرب إن

---

(6) تجد ذلك مفصلاً في كتاب:
H.Benson,Beyond the Relaxation Response, Berkely Books, N.Y.,1985.

وجدت وزيادة النفور والكره للخمر وشاربيها، وبالتالي إشاعة هذه الروح في المجتمع بشكل عام.

### ب- أثر الصلاة والشعائر الإسلامية الأخرى في منع الانتكاس

تحدثنا من قبل عن أهمية الصلاة وتوزيعها في أوقات اليوم والليلة المختلفة واستخدام الإسلام لذلك كخطوة حاسمة في مراحل تحريم الخمر. ونتحدث عنها الآن من وجهة مختلفة هي تثبيت المقلع عن الخمر على جادة الطريق وتطهيره من دنس المغريات الكحولية. ولا شك أنّ الصلاة هي أكثر العبادات تأثيراً في هذا المجال. وهي العمود والركن الأساسي للإسلام، ولا يمكن للإيمان أن يستمر في عنفوانه بدون إقامة الصلوات الخمس. وهي العبادة التي بلغ من أهميتها أنّ المؤمن لا يسمح له بتركها حتى في أحلك الظروف وأصعب الأحوال، وإن كان في ميدان القتال والجهاد، مثخناً بالجراح، محاطاً بالعدو الكافر المترصد من كل جهة، أو حتى إن كان يحتضر على سرير الموت. فإذا كان في وعيه فلا عذر له في ترك الصلاة وإن أداها بأصبعه أو أومأ بعينيه أو أقام حركاتها في خياله وخشوعها بقلبه.

والقرآن يحدد بوضوح دور الصلاة في تطهير القلوب، فلا تنقاد للفواحش، ونظيف السلوك، فلا يقوم بالمنكرات، وتقوية الإرادة، فلا تضعف أمام الإغراءات. قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:45].

ففي الصلاة خشوع وحياء من الله إذا ارتكب المؤمن كبيرة كشرب الخمر، وفيها تأمل وطمأنينة لا تُؤتى أكلها إلا بها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

ولا شك أنّ هذا الاطمئنان النفسي والروحي من أهم الفوائد التي يتقوّى بها المؤمن المقلع عن الخمر فلا يضعف أمام إغراءات الشرب ولا ينهار تحت ضغوط الاعتماد العضوي والنفسي.

يعلّق الشهيد سيد قطب على هذه الآية بكلماته المشرقة وأسلوبه الجميل، فيقول في "ظلاله": ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.. تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير... ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله، يعرفونها، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها.. ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنّه في هذا الوجود ليس مفرداً بل أنيساً، فكل ما حوله صديق، إذ كلّ ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه".

ويمضي الأستاذ سيد قطب قائلاً: "وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون.. ليس أشقى ممن يعيش لا

يدرس لم جاء؟ وأين يذهب؟ ولَمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟...". انتهى تعليق الأستاذ قطب[7].

وفي الصلاة ذكر باللسان وتكرار مستمر لآيات الفاتحة وللتكبير والحمد والتسبيح في أثناء ذلك الخشوع العميق. وفيها أسرار روحية لا يستطيع العلم الحديث أن يسبر غورها، لكن البحث التجريبي المعاصر يكتشف لنا بعض ما في الصلاة من فوائد نفسية وعلاجية.

يتحدث العلماء الآن عن أهمية الاسترخاء والتأمل المتسامي Transcendental meditation في العلاج النفسي والجسمي وتأهيل المدمنين للانفلات من قيود الكحول والمخدرات، فقد ثبت بالدليل التجريبي أنّ المريض الذي يستغرق في التأمل مع تكرار ألفاظ مستقاة من عقيدته أو أي فكر يؤمن به تحدث له تغيرات نفسية وجسمية واضحة كالشعور بالأمن وتلاشي القلق والتوتر وانخفاض كبير في ضغط الدم الانقباضي والانبساطي وجميع التغيرات الفسيولوجية الهامة المصاحبة للاسترخاء والهدوء النفسي كانخفاض استلاك الأوكسجين وازدياد موجات الألفا Alpha من الدماغ.[8] وكانت هذه الدراسات مشجعة بشكل جعل الحكومة الفيدرالية الأمريكية تمول سبعة عشر مشروعاً لأبحاث التأمل المتسامي للمساعدة في تأهيل المدمنين على الكحول بشكل خاص[9].

---

(7) سيد قطب: في ظلال القرآن، مصدر سابق، الجزء الرابع.

(8) H.Blooffield, et al., Transcendental Meditition: Discovering Inner Energy and Overcoming Stress, Delacorte, 1973.

(9) Time Magazine, October 13,1975.

والأعجب من ذلك ما كشف عنه بنسون H.Benson[10] من أنّ العباد البوذيين الذين زارهم في قمم جبال الهيمالايا وطبق عليهم اختبارات فسيولوجية دقيقة أثناء استغراقهم في التأمل الباطني المستمد من تمارين اليوغا، وجد أنّ الواحد منهم يستطيع رفع درجة حرارة كفيه وقدميه إلى ما يصل 13° درجة مئوية في حين أنّ الجو القارس البرودة في قمم الجبال المتوجة بالثلوج البيضاء يسجل انخفاضاً في الحرارة.

إذن فالمداومة الطويلة على الاستغراق في التأمل والاسترخاء والترديد اللانهائي لعبارات مقتضبة مأخوذة من تصور الفرد العقائدي والإيماني يأتي بالهدوء والطمأنينة والسّكينة التي تقوي من بنيته النفسية فتؤهله للحياة بدون الكحول إن كان مدمناً، أو تخفف من قلقه وتوتره إن كان عصابياً، أو حتى ربما تساعده على شفائه من بعض أسقامه العضوية. ويحدثنا الدكتور بنسون هذا، وهو صاحب أشهر كتاب في العلاج عن طريق الاسترخاء، بأنّه لا يشترط في الاسترخاء المصاحب للتأمل العميق أن يكون المرء فيه مستلقياً على أريكة طبيب نفسي، فبالتمرين المستمر يستطيع الإنسان أن يسترخي وهو يجلس القرفصاء كما يفعل البوذي المتبتل، أو وهو جالس في مكتبه أو ماشٍ، أو حتى وهو يقوم برياضة الركض.

ورغم ما في الصلاة المكتوبة من أسرار لا تحيط بها مثل هذه الدراسات، فعلى الأقل، ومن هذا المنطلق المحدود فإنّ للمؤمن خمس جلسات تأملية في اليوم والليلة، يكرر فيها سورة الفاتحة بآياتها الشمولية

---

(10) H.Benson,op.cit.

سبع عشرة مرة، وهو يستغرق في أعمق درجات التأمل، ألا وهو التفكر في عظمة الله رب العالمين، مالك الدنيا والآخرة، والتفكر في آياته المنبثقة في الكون وفي الأنفس فيطلب منه الهداية والغفران. أما إذا اكتفى المصلي بالسنن المؤكدة بالإضافة للصلوات المفروضة فسيقرأ الفاتحة على الأقل ثمانياً وعشرين مرة في اليوم والليلة، وسوف يكرر في صلاته عبارة "الله أكبر" حوالي مائة مرة بالإضافة إلى المداومة على تكرارها 33 مرة في دُبُر كل صلاة، وقس على ذلك صلوات النافلة والتسبيح والتهليل الذي يلتزم به معظم المسلمين، لذلك فإنّ المسلم المقلع عن الخمر سيجد فائدة نفسية وروحية محسوسة من إقامة الصلاة حتى وإن أداها بأسلوب ميكانيكي.

أمّا الزهاد والعباد فيجدون لذة في قيام الليل تنسيهم تورم أقدامهم من طول الوقوف حتى يقول أحدهم: "إنّ الأمراء والملوك لو علموا بالحالة الطيبة التي نجدها في العبادة والصلاة لقاتلونا عليها بالسيوف".

وتراثنا الإسلامي مليء بأخبار الخاشعين في الصلاة للدرجة التي لا يشعرون معها بما يدور حولهم من أحداث. فهذا مسلم بن يسار لم يشعر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة[11]. وقال عابد آخر: "الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا"[12]. ومن القصص المشهورة أنّ أحد هؤلاء العباد أوصى الطبيب بقطع أحد أطرافه، فقيل: إنّه إذا دخل في صلاته لا يحس بما يُجرى عليه، فقطعت وهو في صلاته[13].

---

(11) الإمام أبو حامد الغزالي، "إحياء علوم الدين"، الجزء الأول، دار القلم، بيروت.

(12) المصدر السابق.

(13) المصدر السابق.

ولا يلزم بالطبع أن تصل صلاة المسلم إلى هذا المستوى الرفيع حتى يستفيد منها من الناحية النفسية والروحية، فهناك فروق فردية كبيرة بين المؤمنين في هذا الصدد. وكما جاء في الحديث الشريف: «**إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها**»[14].

وإنّه لمن العجيب حقاً أن يصل الدكتور بنسون إلى أهمية ترديد الكلمات والعبارات المقتضبة المنبثقة من إيمان الفرد مع الاستغراق في التأمل ليستجلب الاسترخاء النفسي، وكأنّه في ذلك يصف مؤمناً يسبّح الله في استغراق وهو جالس على سجادته بل وإنه يختار في كتابه المشهور الذي أشرنا إليه، يختار العبارات التي يمكن للمسلم أن يرددها في استرخائه، ففي الفصل السابع من كتابه عن أسس العامل الإيماني (The Fundamentals of the faith factor) يقول الدكتور بنسون ما ترجمته: "والمسلمون قد يرددون بعض الكلمات الآتية: كلمة "الله"، أو بعض الكلمات التي كان يرددها المسلم الأول (ويقصد المؤلف بلال بن رباح رضي الله عنه) وهي: أحدٌ... أحدٌ...". لكنّ المؤلف أخطأ في كتابة أحد... أحد، فكتبها باللغة الإنكليزية بحرف الميم Ahadum!

إنّ هذه الدراسات وإن ركّزت على جوانب محددة سطحية بالنسبة للصلاة والتسبيح عند المسلمين إلا أنها ذات قيمة كبيرة بالنسبة لعلماء النفس المسلمين الذين يريدون أن يؤسسوا تخصصاتهم النفسية على أسس إسلامية.

---

(14) الحديث أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح.

ومن الدراسات المهمة في هذا المجال ما قام به الدكتور أحمد القاضي في "عيادات أكبر" في أمريكا حيث برهن بأسلوب تجريبي على أنّ الاستماع إلى آيات القرآن الكريم وهي تتلى على أفراد المسلمين، ومن غير المسلمين، ومن الذين يعرفون اللغة العربية، ومن أولئك الذين لا يعرفونها؛ برهن على أنّ الاستماع إلى القرآن يأتي بالاسترخاء النفسي والفسيولوجي الذي يمكن قياسه بالأجهزة الدقيقة المتخصصة، وأن استماع هؤلاء الأشخاص لقطع أدبية باللغة العربية لا يأتي بتأثير مشابه حتى بالنسبة لغير المسمين وغير الناطقين باللغة العربية[15].

أما بالنسبة لتأثير شعائر الإسلام الأُخر كالصوم والحج فإننا لا نحتاج إلى سوق الأدلة على دورها الفعال في مساعدة المسلمين المدمنين على الإقلاع والحياة بعد ذلك بدون الكحول. فكل من عاش في بيئة إسلامية يعرف الكثير عن أقربائه من المعاقرين للخمر والمدمنين عليها الذين يجتنبونها تماماً خلال شهر رمضان المبارك. وكثير من هؤلاء يجد في شهر الصيام فرصة طيبة للإقلاع النهائي. ففي دراسة قمت بها عن أهمية الإسلام في مساعدة من يدمن الخمر من المسلمين وجدت أنّ ما بين 31 شخصاً ممن كانوا يدمنون الخمر هناك 25 (أي حوالي 80٪ من العيّنة) كانوا يقللون من تعاطي الخمر كثيراً خلال الشهر المبارك. فكان هؤلاء يشربون قليلاً من الخمر أثناء الليل ويحرصون على الصوم طوال النهار.

---

(15) د. أحمد القاضي: تأثير القرآن على وظائف الجسم البشري وقياسه بواسطة أجهزة المراقبة الإلكترونية، "عيادات أكبر"، بنماسيتي، فلوريدا: 1984.

فالامتناع عن الطعام والشراب وصلاة التراويح الجماعية ليلاً وجو التقوى والسكينة في رمضان يعطي هؤلاء دافعاً روحياً قوياً لاجتناب الخمر أو التقليل من تعاطيها.[16]

أمّا تأثير الحج والعمرة فأمر واضح كذلك حيث نشاهد في عالمنا الإسلامي الحديث الكثير عمّن يشربون الخمر بإسراف أو يدمنون عليها يسافرون للحج أو للعمرة إما بدافع ذاتي أو لظروف أخرى كاصطحاب والدة عجوز أو البحث عن عمل في دول الخليج، ويرجعون إلى بلادهم وقد تبدلت أحوالهم وأصبحوا رجالاً صالحين قد أقلعوا عن الخمر وتركوا أصدقاء السوء والندماء.

إن كان لهذه الشعائر والعبادات مثل هذا التأثير في بيئتنا المادية الحديثة التي بعدت كثيراً عن هدي الإسلام ونور النبوة، فكيف يتأثيرها على المؤمنين في خير القرون والقرآن يتلى عليهم غضاً مبيناً والرسول ﷺ بين ظهرانيهم.

## ج- الإيمان والشعائر الإسلامية كبدائل للاعتماد على الكحول

وفي الحقيقة، فمن منظور الدراسات النفسية والاجتماعية يقوم الإيمان وما ينبثق عنه من شعائر وعبادات إسلامية مقام البديل Alternative. فمفهوم "البدائل" للإدمان يعتبر أن أهم مفاهيم أبحاث سيكولوجية

---

(16) مالك بدري: "الدور النفسي والروحي للإسلام في مساعدة من يدمن الخمر من المسلمين"، بحث ألقي في مؤتمر علم النفس والإسلام في جامعة الرياض عام 1979م.

الانتكاس وأحدثها. ويعتقد كثير من الدارسين في ميدان الطب النفسي وعلم النفس السريري، أنّ سبب نسبة الانتكاس العالية بين المدمنين على المسكرات والمخدرات والتي تتراوح بين 60٪ إلى 90٪[17] هو إهمال المعاهد العلاجية والمستشفيات في مساعدة المدمن المقلع على تكوين نشاطات ودوافع نفسية واجتماعية بديلة لتلك التي كانت تدعّم الاعتماد على المسكرات والمخدرات. ويكتب الدكتور Hesse عن هذا الموضوع بجرأة ووضوح في بحثه الذي ألقاه في المؤتمر العالمي الخامس لمنع الاعتماد على المخدرات وعلاجه والذي نترجم الآتي منه بتصرف:

يقول: "إنّ اعتقادنا بأننا نستطيع أن نمنع أسّ شخص من تعاطي المخدرات هو اعتقاد أسطوري، إنّنا نعالج المدمنين كأننا نقوم بعملية سحرية تحول المدمن بعد علاجنا الطبي النفسي إلى إنسان آخر، الحقيقة غير ذلك. فهب أنّنا جئنا بشاب مدمن عمره 21 سنة، "شبه متعلم" وليست له حرفة مجزية وقد اعتاد "النشل" والسرقة، وقمنا بعلاجه بالأساليب الطبية والنفسية التقليدية حتى تطهّر جسمه من المخدر واستعد لمغادرة المستشفى، ما هي النتيجة بعد ذلك؟... سيكون بين أيدينا شاب عمره 21 سنة كان مدمناً سيعود كذلك بعد فترة قصيرة، شبه متعلم وليست له حرفة مجزية، وصاغ أسلوب حياته وسلوكه ليصبح "نشالاً" ولصاً ناجحاً!".

---

(17) L.Brill and Lieberman, Authority and Addiction, Little, Brown CO., Boston 1969.

ويمضي Hesse قائلاً: "إنّه لمِمَّا يؤسف له أنّ الطب النفسي قد أقنع الناس بأنّه يقدم الشفاء للمدمنين فصدقوه! والحقيقة أنّ الأطباء والمعالجين النفسانيين ينجحون فقط في إيقاف الاعتماد الفسيولوجي إلى أن ينتكس المدمن مرة أخرى. وإذا استمر الوضع على الشكل الراهن، فإن الحقيقة الوحيدة التي يمكن تأكيدها في برامج العلاج هي أنّ المدمن الذي تمّ علاجه سيعود بعد حين!!". ويردف الدكتور Hesse قائلاً: "إنّه إذا أردنا علاجاً أكثر فائدة فعلينا أن نتعرف على الأسباب الحقيقية التي تجعل المدمن يتعاطى المخدر أو المسكر وأن نقدم له البدائل التي تمنع انتكاسه بعد خروجه من المستشفى". انتهى[18].

إنّ موضوع البدائل المناسبة للمدمنين والمعتمدين المقلعين هو من أهم ما تهتم به الآن جمعيات مكافحة المسكرات العالمية، فهي قد اقتنعت بضرورة تعديل التصور التقليدي للإدمان والاعتماد القائم على نظريات الطب النفسي وممارساته. فدوافع الشرب إذا لم تجد القنوات التي تمتص نشاطها أخذت بخناق صاحبها وألقت به مرة أخرى في حمأة السكر. وتهتم هذه المؤسسات الآن بإشراك المقلعين في نشاطات وهوايات اجتماعية ورياضية مختلفة لملء أوقات فراغهم وإشباع حاجاتهم النفسية واستهلاك طاقاتهم. كما تدربهم على العمل الشريف المثمر عن طريق التأهيل المهني.

---

(18) R. Hesse, ((Issues in Drug Abuse Management)), Fifth International Institute on the Prevention and Treatment of Drug Dependence, I. C. A. A., Lausanne, 1974.

ولا شك أنّ نجاح الإسلام الباهر في تحقق معجزة الإقلاع دون انتكاس كان بسبب تقديمه لبدائل إيمانية ولشعائر إسلامية تلاشت أمام زحمها الروحي فقاقيع دوافع الشرب والاعتماد على الكحول وكأنها زبد ذهب جُفاءً.

ورغم أنّ مفهوم "البدائل" هذا أمر حديث في علم النفس والطب النفسي، إلا أنّه كان موضوعاً واضحاً أشد الوضوح للمسلمين في عصر النبوة وفي كتابات علماء التراث الإسلامي.

فمن الواضح من آيات تحريم الخمر أنّ الدوافع لتناول المسكرات والسلوك الذي يحدثه السكر متناقض تماماً مع دوافع ذكر الله والصلاة والسلوك الذي ينتج عنهما. لذلك فإنّ الصلاة وذكر الله هما البدائل الخيّرة للسكر والإدمان على الخمر، فالذكر يحتاج إلى عقل راشد وقلب واع ويحدث طمأنينة وسكينة، والسكر يذهب العقل وينسي ذكر الله ويولد عدم الاستقرار والبغضاء. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:91].

وفي الحديث الشريف والسيرة النبوية نسمع عن الصحابي الجليل مازن بن الغضوبة بن غراب[19] أنّه كان مولعاً بشرب الخمر والطرب وبالهَلوك

(19) ابن حجر العسقلاني، "كتاب الإصابة في تمييز الصحابة"، الجزء الثالث، مطبعة السعادة، القاهرة، 1328هـ. ص 226،

من النساء، حتى كبرت سنّه وليس له ولد. ولعلّه كان مدمناً على الكحول. نسمعه يسأل رسول الله ﷺ أن يدعو له الله، فدعا له عليه الصلاة والسلام "بالبدائل" الطيبة لنفس دوافع الجنس والطرب والشرب فقال: «**اللهم أبْدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، وبالخمر رياً لا إثم فيه، وبالعهر عفة الفرج.. وهبْ له ولداً**»[20].

يقول مازن رضي الله عنه، إنّ الخمر أُذهب عنه كلما كان يجد، ووهبه الاستقرار الأسري والولد. فصاغ هذه الخبرة المباركة في شعر جميل يوضح فيه المفهوم الحديث لبدائل الشرب أجمل توضيح، حيث يقول:

إليك رسول الله حنّـــت مطيـــتي
تجوب الفيافي من عمان إلى العرج
لتشفع لي يا خير من وطئ الحصى
فيغفر لي ربـــي فأرجع بالفلـــج
وكنت امرءاً بالعزف والخمر مولعاً
حياتيَ حتى آذَنَ الجسم بالنّهـــج
فبدلني بالخمر خـــوف وخشيـــة
وبالعهر إحصاناً وحصن لي فرجي
فأصبحت همي في جهـــاد ونيتـــي
فلله ما صومـــي ولله ما حجـــي

---

(20) الحديث تجده في كتاب المحدّث القاضي بدر الدين أبي عبد الله الشلبي في كتاب: "غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة"، مكتبة القرآن للطبع، القاهرة، 1982م.

ويبدو جليّاً مما سبق أنّ الإسلام لا يحارب الفطرة والغرائز أو يدعو لاجتثاث الدوافع من جذورها، إنّما يتعرف على ارتباطاتها الشريرة ويوجهها برفق إلى الخير والطهر، حتى ينشئ في النفس بدائل "تدعيمية" تطغى على اللذة والإشباع الذي كان يجده المرء في ممارسة الكبائر كشرب الخمر.

وهذا الموضوع نجده بتفصيله في كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم وهو يتحدث عن "القوة الروحية" التي تتولد في قلب المؤمن فتثمر لذة روحية تفوق اللذة النفسية والجسمية التي كان يجدها المذنب قبل توبته عند ممارسة الكبائر. وأرجو أن يلاحظ القارئ كيف استخدم ابن القيم اصطلاحات "قوة الروح" و"اللذة الروحية" و"اللذة النفسانية" و"اللذة الجسمانية" بدقة وعمق. يقول ابن القيم: إنّ المؤمن إذا هيمنت السكينة على قلبه سكن إلى نورها.

ويقول: "وهو الذي (كان) سكونه إلى المعصية والمخالفة. (عند حلول السكينة) في قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد فيها مطلوبه، وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية، ولم يكن له ما يعيضه عنها، فإذا نـــزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية، فاستراحت بها نفسه، وهاج إليها قلبه، ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية، فصارت لذته روحانية قلبية، بعد أن كانت جسمانية.

ثم يستطرد ابن القيم في وصف الصراع "الدينامي" الداخلي في قلب المؤمن بين دوافع المعصية التي تأتيه بين حين وآخر وبين الدوافع الروحية البديلة بدقة تفوق كتابات علماء النفس المحدثين، حيث يصف هذا الصراع بأسلوب أدبي لطيف وكأنه يحدثنا عما يعانيه المؤمن الذي أقلع لتوه عن معاقرة الخمر وهو يحارب أعراض الانقطاع والدوافع النفسية والفسيولوجية التي تدعوه بقوة لتناول الكحول من جديد.

يقول ابن قيم: "إنّ بروق شهوات المعصية إذا تألقت في سماء المؤمن التائب النفسية فإنه يقول لها:

تألق البرق نجدياً فقلت له  يا أيها البرق إني عنك مشغول

فإذا طرقته طيوفها الخيالية في ظلام ليل الشهوات، نادى لسان حاله، وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا  وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، تمثل بقول الآخر:

قالت وقد عزت علي ترحالها  ماذا تريد؟ فقلت ألا ترجعي

فإذا شربت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه... (وبدلت) ثورته وقاراً وخشوعاً"[21].. انتهى.

---

(21) ابن قيم الجوزية، "تهذيب مدارج السالكين"، تهذيب: عبدالمنعم صالح العلي، طباعة وزراة العدل والشؤون الإسلامية لدولة الإمارات العربية المتحدة، 1402هـ.

إن كان الإسلام يقدم مثل هذه المفاهيم في آيات قرآنه الكريم وحديث نبيّه الشريف وعلماء التراث من عبّاده ومفكريه، فكان الأجدر بعلمائنا المعاصرين في مجال الإدمان وعلاجه أن يكونوا الرواد السابقين، لا الأذيال المقلدين.

يكفي هذا القدر من الحديث عن أثر الإيمان والشعائر الإسلامية في منع الانتكاس ولننتقل إلى الفقرة التالية.

**د- أثر التماسك الاجتماعي والتعاضد في منع الانتكاس**

لقد ذكرنا في بداية هذا الفصل أنّ للإيمان والتقوى ثماراً هامة تثبّت الإقلاع وتحمي من الانتكاس، أولها أثر الشعائر الإسلامية التي يؤديها المسلمون كعبادات مفروضة ونوافل، وثانيها تقوية الإخوة والتعاضد الذي يرفع راية المؤمنين ويقوي شوكتهم في المجتمع بأسره. وقد تحدثنا بالتفصيل عن أثر الشعائر الإسلامية، فلنتحدث قليلاً عن أهمية التآخي والتعاضد كعامل هام يحمي المجتمع الإسلامي من الانتكاس. فهذا التآخي كما ذكرنا من قبل، يرفع لواء المثل الإسلامية، عزيزة ظاهرة تقوّي من عزيمة الضعفاء من المؤمنين وتلحقهم بالصفوة المسيطرة. كما تفرض قيمها على أعداء الإسلام من المنافقين وغيرهم من جهلاء الأعراب والبدو فينصاعون ويستكينون، فلا يجرؤ أحدهم على شرب الخمر جهاراً نهاراً، ولا يستطيع أن يجعل من نفسه وندمائه قوة للمنتكسين. فإن أراد تناول خمر ففي ظلمة قعر داره وبكمية لا تفضحه بسكر ظاهر ولا لغو فاجر!، وفي الحقيقة فإنه لا يمكن أن تقوم جماعة إسلامية في الأرض إلا

بالإيمان والتقوى بهذا التآخي: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن أهمية التآخي من منظور التماسك الاجتماعي فلا نكرر ذلك لكننا نؤكد هنا فقط أنّ هذا التماسك الذي تجاوز صلة العرق والدم لتكون كلمة الله هي العليا وسنة رسوله ﷺ هي المسيطرة، هو صمام الأمان من الانتكاس إلى السلوك الجاهلي الذي تمثل فيه الخمر دوراً رئيساً.

ولنتأمل هذه الآية المدنية التالية وسبب نـــزولها لنتعرف على عمق هذا التعاضد الذي فرض سيطرة المثل الإيمانية على مجتمع المدينة حتى تمت معجزة الإقلاع بلا انتكاس:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8].

اتفق المفسرون على أنّ هذه الآية نـــزلت في عبدالله بن أبي بن سلول. وكما يقول ابن إسحاق أنّ ذلك كان بعد غزوة بني المصطلق حيث حدث شجار بين أجير لعمر بن الخطاب وسنان بن وبر الجهني فاقتتلا وصرخ الجهني "يا معشر الأنصار" واستنجد أجير عمر بالمهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وعنده رهط من قومه وشبه إحسان الأنصار لفقراء المهاجرين بالمثل العربي المشهور "سمّن كلبك يأكلك" وقال "أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز

منها الأذل.."، فعندما سمع رسول الله ﷺ بذلك ارتحل بالناس في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فشعر عبدالله بن أبي بخطئه، وكان في قومه شريفاً عظيماً فمشى إلى رسول الله ﷺ يحلف بالله ما قال ما نقل إلى الرسول ﷺ، فجاء أسيد بن حضير يسأل رسول الله ﷺ عن سبب رجوعه المفاجئ إلى المدينة في تلك الساعة المنكرة، فقال له رسول الله: «**أوَ ما بلغك ما قال صاحبكم؟، زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل**». قال أسيد: "فأنت يا رسول الله لتخرجنه منها إن شئت. وهو -والله- الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الحرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنّك قد استلبته ملكاً!".

قال ابن اسحق: إنّ عبدالله بن عبدالله بن أبي وكان صحابياً جليلاً أتى رسول الله فقال له: "أنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي، فإن كنت لابدّ فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه"!

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أنّ الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله رضي الله عنه على باب المدينة واستل سيفه...فلما جاء أبوه عبدالله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال له: مالك؟ ويلك! فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنّه العزيز وأنت الذليل، فلم يستطع عبدالله بن أبي أن يدخل المدينة حتى أذن له رسول الله ﷺ[22].

---

(22) راجع تفاصيل القصة بأكملها في "تفسير سورة المنافقون"، في كتاب (في ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب "مصدر سابق".

إذن فهكذا نقل الإسلام جيل الصحابة إلى هذا الأفق السامق من التآخي والتماسك الذي فاق رباط الأبوة والبنوة، حتى أصبح "الأعز" فيها شرع الله وسُنّة نبيه ﷺ، و"الأذل" فيها دعوى الجاهلية وتقاليدها. فأمثال عبدالله بن عبدالله بن أبي هم الذين حققوا هذه المعجزة، ونشروا المظلة الروحية الوارفة التي استظل بها المقلعون وحموا أنفسهم من الانـــزلاق في هوة الانتكاس.

عندما نستمع لمثل هذه الأحداث نستشعر قوة الترابط والتماسك الذي أحدثه الإسلام في مجتمعه المدينة المنورة، ويمكننا -وهذه الخلفية في خيالنا- أن نتصور الحرج والقلق الذي يساور الضعفاء من المؤمنين الذين تنازعهم أنفسهم لتناول الخمر فيفزعون إلى الإقلاع! ونستطيع أن نتصوّر الشعور بالخزي والعار الذي ينـــزل بالمرء إذا وجد سكراناً، فالجماعة حينئذ تشعره بأنه ارتكب في حقها خيانة عظمى، هذا بالإضافة إلى ارتعاد فرائصه من غضب الله عليه وعذابه في الدنيا والآخرة.

ومن الغريب أن العالم الغربي الحديث لم يكتشف القدرة الهائلة للجماعة المترابطة في علاج الإدمان ومنع الانتكاس إلا في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات من هذا القرن الميلادي. فمثل هذه الجماعة المنظمة ذات المصالح المشتركة والتي تعيش في مكان واحد كأسرة ممتدة أو قبيلة صغيرة Community وتلتزم بمحاربة المسكرات والمخدرات، تستفيد من تماسكها الاجتماعي القوي لتستخدم الضغوط النفسية على أفرادها حتى ينصاعوا لأوامرها فيقلعوا عن المسكرات

والمخدرات ويشعروا بعد ذلك أنّ الانتكاس خيانة للجماعة ومُثُلها، وربما يسبب لهم الحرمان من تعاطفها والانتماء إليها.

والأدهش من ذلك أنّ هذا الاكتشاف لدور مثل هذه الجماعة قد تمّ عن طريق الصدفة المحضة! فيذكر العالم النفسي المشهور Mowrer[23] في بحث ألقاه في المؤتمر العالمي الأول للجماعات العلاجية أنّ Charles Dederich هو مؤسس أول جماعة علاجية للمدمنين على المخدرات والمسكرات. وقد كان هو نفسه مدمناً على الكحول لمدة زادت على العشرين عاماً لدرجة أفقدته وظيفته وقضت على مدخراته، فلم تجد زوجته بداً من طرده من المنـــزل وقطع كل صلاتها به بعد أن فقدت فيه الأمل.

التجأ بعد ذلك لجمعية Alcoholics Anonymous التي تحدثنا عنها من قبل، فساعدته حتى أقلع تماماً عن الخمر ونشط في حضور اجتماعاتها ومساعدة المدمنين الآخرين، لكنه كان ثرثاراً كثير الكلام يحتكر الحديث في اجتماعات الجمعية، ممـــا حدا بالمشرفين إلى توجيه اللوم ثم الإنذارات المتتالية له، لكن كل ذلك لم يحد من انطلاقه اللفظي، فاضطرت الجمعية أخيراً إلى منعه من حضور اجتماعاتها.

ولم يكن هذا التحجيم ليمنعه من ممارسة هوايته المفضلة ألا وهي الثرثرة وكثرة الكلام، فدعا بعض المدمنين "المزمنين" للسكن معه في شقته

---

(23) O. Mowrer, "Therapeutic Groups and Communities in Retrospect and Prospect", Proceedings, The International Council on Alcohol and Addiction, Sweden,1976.

الصغيرة بشرط الاستماع "لمحاضراته الطويلة" التي أصبحوا يجدون فيها متعة خاصة. واشتهر أمره وازداد عدد المدمنين على الكحول والمخدرات الذين يستمعون لخطبه، وسكن كثير منهم في أماكن بجوار مسكنه.

وفي صيف عام 1958 شعر أصدقاء Dederichs أنّ عددهم قد ضاق به المكان فجمعوا مبلغاً من المال واستأجروا به مسكناً واسعاً رخيصاً في ضواحي مدينة لوس أنجلس سكنه 18 مدمناً و14 مدمنة عاشوا فيه حياة مشتركة "كقبيلة صغيرة" يساعد أفرادها بعضهم بعضاً في التغلب على مشاكلهم.

لاحظ Dederichs ظاهرة غريبة هي أنّ عتاة المدمنين أصبحوا يعيشون أياماً متتالية في هذا السكن المشترك دون الحاجة ليتناولوا مخدراتهم أو مسكراتهم، وكان ذلك أمراً لا يمكن توقعه أو تصديقه من أشخاص مردوا على الإدمان، فأخذ يشجع المقلعين على الاستمرار في إقلاعهم ويوبخهم كلما انتكسوا، فلاحظ تحسناً مستمراً في حالتهم حتى شفي بعضهم تماماً وأصبح الإقلاع شعاراً للجماعة. عند ذلك تأكد Dederichs من أنه اكتشف أسلوباً ناجحاً للعلاج وعثر على كنـــز ثمين لنفسه. فكما يقول Mowrer[24] في بحثه: "إنّ العلاج الطبي النفسي التقليدي للمدمنين لم يكن قدم في ذلك الوقت غير علاج سطحي لا يزيد على "خدش" الجلد الخارجي للمشكلة، فكانت نسبة النجاح

---

(24) Ibid..

تتراوح بين 2٪ إلى 4٪ من الحالات بالرغم من التكاليف الباهظة التي تصرفها الدولة على هذا العلاج".

يقول Mowrer:[25] إنّ Dederichs وأعوانه استطاعوا بعد ذلك أن يطوروا مؤسستهم للجماعات العلاجية بسرعة مذهلة. ففي غضون سنوات قليلة كانت القرى العلاجية الصغيرة والجماعات التابعة لهم، والتي أطلق عليها اسم Synon، قد انتشرت في كـــل ركن في الولايات المتحدة، واستطاعت أن تعالج آلاف المدمنين وأن تقيم مؤسسات بملايين الدولارات، وتدل أبحاث Mowrer[26] أنّ نسبة نجاحهم عالية تتراوح بين 40٪ إلى 70٪ من حالات الإدمان على المخدرات.

لكن بعض الباحثين من أمثال Brill[27] يعتقدون أن كثيراً من المدمنين الذين يقلعون تماماً أثناء وجودهم في جو "الأسرة الممتدة" للجماعة لا يلبثون أن ينتكسوا إذا خرجوا للحياة العامة.

وعلى كل حال فإن هذه التجربة تؤكد أنّه كلما زادت روابط الإخوة وزاد تماسك الجماعة الرافضة للمسكرات والمخدرات، تعمق تبعاً لذلك شعور الفرد بقيمة انتمائه لها وخوفه من لفظها له، وهذا لا شك من أقوى دوافع الإقلاع ومنع الانتكاس.

---

(25) Ibid.

(26) Ibid.

(27) Brill,et.al,op. cit.

فإذا أضيف لهذا الدافع العامل الإيماني والروحي للجماعة فإن التاريخ سوف يعيد ظاهرة المدينة المنورة ولو بشكل مخفف. وهذا هو الذي حدث للجماعات التي اعتنقت الإسلام في أمريكا. فقد استفادت من دوافع الأخوة والتعاضد بالإضافة إلى نور الإيمان وصفاء الروح. فاستطاعت أن تحقق أعلى نسب الإقلاع دون انتكاس حتى بين من كانوا من عتاة المجرمين وأشد المدمنين، وتمّت هذه المعجزة من قبل الآلاف في قلب مدن أمريكا المزدحمة، وبغير الحاجة إلى حياة لا أخلاقية مشتركة ولا إلى نقل المدمنين إلى قرى ومساكن خاصة في الأرياف.

### هـ- منع الانتكاس بالتجفيف الكامل لمصادر الكحول

إنّ المنع الكامل لتداول الخمر بقوة الضغط الاجتماعي والعرف السائد والقانون الحازم، والإصرار على سدّ أيّ ثغرة يمكن أن تتسرب منها الخمر لَمن أهم العوامل التي تحمي المدمن المقلع من الانتكاس المحتمل. ومن الواضح أنّ الإسلام أخذ يضيّق الخناق على عادة تناول الكحول بالتدريج، حتى إذا ما جاء الوقت المناسب نـــزل القرآن بالمنع الحاسم وسدّ الحديث النبوي، الذي أشرنا إليه من قبل، جميع المنافذ التي قد يتخذها البعض لشرب الخمر أو بيعها.

ولا شكّ أنّ من أهم الأسباب للنسبة العالية من المنتكسين في عالم اليوم، والتي قد تصل إلى 90٪ من الحالات التي تمّ علاجها، انتشار الخمور والمسكرات في البارات المفتوحة والحض على شربها في الدعايات المنشورة في وسائل الإعلام، وتأثر المدمن المقلع بأصدقائه القدامى من

السكارى، ومن الأشخاص المهمين في بيئته الذين يصبحون قدوة سيئة له. وقد أكّد Kessel و Walton على ثلاثة عوامل اجتماعية وثقافية اعتقدا أنها من أهم الأسباب الرئيسية لإدمان الخمر وللانتكاس في عالمنا المعاصر هي: الدوافع، الفرصة، والقدوة.

فهما يعتقدان أنّ مجتمع الرفاهية الحديث بما يوفره من رواتب عالية وفراغ كبير يتيح أمام الناس فرصة كبيرة لتناول الخمر. بمعنى أنّ وفرة الوقت والمال مع ضعف الوازع الخلقي وعدم وجود النشاط البديل يحرّض على شرب المواد الكحولية. لكن الدافع لشرب الخمر يحتاج إلى وجود المشروبات الكحولية في البيئة، وكلما ازدادت فرص الشرب من حول المرء ازداد الدافع للشرب، لذلك، كما يقول هذان العالمان نجد أنّ أعلى نسب الإدمان على الكحول هي بين الأشخاص الذين تتصل وظائفهم بالخمر كالعاملين بالحانات والبارات ومصانع المشروبات الكحولية بالإضافة إلى الجنود والمسافرين من التجار الذين غالباً ما تكون لقاءاتهم الاجتماعية في الحانات. ومما يؤكد هذا الرأي أنّه من أكثر البلاد التي ترتفع فيها نسبة الإدمان هي تلك التي تشتهر بصناعة الخمور وتصديرها مثل أسكتلندا التي تفوق نسبة الإدمان فيها بكثير تلك النسب الموجودة في إنكلترا المجاورة لها.[28]

ومما يؤكد خطورة عامل الوفرة وسهولة حصول الفرد على الكحول والمخدرات ما ظهر أخيراً من دراسات كشفت عن النسبة العالية لإدمان

---

(28) Kessel and Walton,op. cit.

المخدرات بين الأطباء والأطباء النفسانيين والممرضين، وقد لخّصت مجلة نيوزويك الأمريكية NewsWeek هذه الدراسات في مقالة شاملة ساعدت في كتابتها الدكتورة Morrison وهي طبيبة نفسية كانت قد شفيت لتوها من الإدمان على المخدرات، واختارت للمجلة عنواناً من السجع الطريف لبحثها Docs in need Detox. وكلمة Docs هي اختصار لكلمة Doctors أي أطباء أو "دكاترة"... وكلمة Detox هي اختصار لاصطلاح Detoxification وهو عملية تطهير جسم المدمن من سموم المخدرات. فالترجمة الكاملة للعنوان هي: أطباء في حاجة إلى تطهير أجسامهم من سموم المخدرات.(29)

إنّ الأطباء والعاملين معهم هم في الحقيقة أكثر الفئات اشتغالاً واتصالاً بالعقاقير المخدرة، فهم يصرفونها للمرضى ويستطيعون الحصول عليها بكتابة الوصفات الطبية، بل إنّ أخطر المخدرات تأتيهم دون أن يطلبوها مصحوبة بالدعايات الخلابة والهدايا الطريفة من قبل شركات الأدوية التي توزع العينات الطبية على الأطباء في عقر عياداتهم!

إنّ حقيقة انتشار الإدمان بين الأطباء في أمريكا وأوروبا ظلت في طي الكتمان لسنين عديدة، وذلك -كما تقول مجلة نيوزويك- لمكانتهم المرموقة ولأنهم أكثر قدرة من غيرهم على إخفاء أعراضهم كما أنّهم أكثر الناس إنكاراً لما يشينهم وأقلهم اعترافاً بضعفهم. فهم طبقة متميزة

---

(29) D.Gelman et, al, "Docs in Need of Detox" Newsweek, may 29,1989, Issue.

في أغلب المجتمعات المعاصرة، وتمضي دراسة مجلة News Week قائلة بأنّ طبيعة عمل الأطباء تشعرهم بالاستعلاء والتحكم في أعظم ما يملكه الناس أي صحتهم، لذلك أنشئت في أمريكا مصحات لعلاج مدمني الأطباء لأنّ وجودهم مع مرضى ومدمنين آخرين سيجعل الكثير منهم ينقلب إلى دور المعالِج، (بكسر اللام) بدلاً من المعالَج (بفتح اللام).

وتعلق الدكتورة Morrisson عن ظاهرة الإنكار هذه بقولها: إنّ الأطباء اكتشفوا هذه الظاهرة في أنفسهم وانتشرت بينهم الفكاهة القائلة بأن الحرفين MD وهما -كما هو معروف- اختصار للدرجة الجامعية في الطب، أصبحت عندهم اختصاراً لكلمتي Massive Denial ومعناها "الإنكار العظيم"!

يقدّر الدارسون[30] أنّه بين كلّ ثمانية أطباء أمريكيين هناك واحدٌ من المدمنين على المخدرات أو هو في طريقه للإدمان، وربما كان هذا التقدير فيه كثير من التحفظ بسبب ظاهرة الإنكار التي تعرضنا لها.

توضح لنا هذه الدراسة بجلاء أنّ معرفة الإنسان بخطورة المواد المخدرة لا تنفعه إذا لم يكن له وازع يردعه، إذا تعرّض لإغراءات الوفرة والدافع.

وبالإضافة إلى الدافع والوفرة كما ذكرنا، يركز العالمان Kessel & Walton على القدرة والعنصر الرئيسي في ذلك بالطبع هو الأسرة. وقد

---

(30) Ibid.

وجد Nylander[31] أنّ ميْل أبناء مدمني الخمر إلى الإدمان أكثر من غيرهم ممن هم في مثل أعمارهم، ومع هذا فإنّ الأثر الكبير للقدوة لا ينحصر في الأسرة ولا في الطفولة فحسب، فالبالغون قد يقلدون أشخاصا من ذوي المكانة والاحترام في نفوسهم، فيمارسون نفس عاداتهم في شرب الخمر. فضلاً عن أنّ الإعلانات التجارية التي تبرز الأبطال الرياضيين والممثلين الذين يشربون نوعاً معيناً من المواد الكحولية ليعطيهم القوة والرغبة الجنسية قد يكون لها تأثيرها الملاحظ على المراهقين. لذلك فإنّ المدمن السابق الذي يتخلص من اعتماده الفسيولوجي على الكحول، ويشترك في جلسات نفسية محدودة في المستشفى أو العيادة التي يتعالج فيها، ويخرج بعد ذلك إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه، سوف تتكالب عليه الدوافع القديمة، وسيجد الفرص الكثيرة من حوله وسوف تزداد رغبته لمعاودة الشرب، تقليداً لمن يعتقد أنّهم قدوة له. فمثل المدمن المعاصر فيما يجابهه من تناقض بين بيئة المستشفى التي تقول له "لا تشرب الخمر!" وبين البيئة الخارجية التي تدعوه بكل قوة للانتكاس والعودة للإسراف في الشرب، بسبب سيطرة ثالوث: الفرصة والقدوة والدافع، كمثل الذي:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له  إياك إياك أن تبتل بالمـــاء

إنّ هذا التناقض هو من أهم أسباب نسبة الانتكاس العالية، وهو الذي أصاب الأطباء المخلصين والعلماء العاملين في ميدان علاج الإدمان على

(31) I.Nylander,"The Children of Alcoholic Fathers," Acta Peadiatrica Scandinavica,49, Supplement 121,1960.

المسكرات والمخدرات بالإحباط وجعل بعضهم يأتي بحلول غريبة للتخلص من هذا التناقض. فيذكر الطبيب النفسي السويدي المشهور Nil Bejrot[23] والباحث في معهد Karolinska في Stokholm (استكهولم)، أنّ القدوة عامل فعّال في زيادة الإدمان على الخمر والمخدرات، وفي انتكاس من شفوا من تناولهما أكثر مما يعتقده المختصون بصفة عامة. فهو يقول إنّ الإدمان مثل الجُدري، كلاهما مرضان وبائيان معديان، إلا أنّ أحدهما ينتشر بالفيروس والآخر ينتشر بالقدوة. ويذهب في رأيه بعيداً فيقترح عزل ضحايا الإدمان في "قرى" تأهيلية خالية من المخدرات كوسيلة للحد من الإدمان ويؤكد أنّ خطر القدوة بالنسبة للمخدرات أكبر من خطر المهربين والتجار.

ويتضح جلياً مما سبق أنّ الإسلام عندما وصل بالمجتمع المدني إلى التحريم النهائي، اتخذ خطوات فورية وحاسمة لحماية المجتمع من هذا التناقض، ومن وقوع أية انتكاسات فردية أو جماعية، فقد لُعنت الخمر، ولم تقتصر اللعنة على شاربها فحسب، بل شملت ساقيها ومبتاعيها وبائعها ومعتصرها وحاملها، وبذلك سدّت الطريق أمام عوامل "الفرصة والدافع والقدوة". ومن ثم فإنّه لم يعد في مقدور المتعطش إلى الخمر بعد أن امتنع عنها أن يجد نفسه وقد ضعفت إرادته أمام حانة بيع الخمر بناصية الشارع، تدعوه للانتكاس برائحتها النفاذة، ولم يعد يرى تجمعاً

(23) Interview With the New York Times published by Time Magazine, May 22, 1972 issue.

سكيراً من وجهاء القوم، ولن يضايقه مضيّفوه في حفلات المساء، فيحملوه على شرب كأس واحدة ليصحو بعدها في صباح اليوم التالي فيجد نفسه في بيته دون أن يعرف كيف حدث ذلك.

### و- منع الانتكاس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد ذكرنا أنّ مجتمع المدينة بعد تحريم الخمر كان يتمتع في غالبيته بروح إيمانية عالية، لا تحتاج إلى إرهاب القوانين ولا إلى الضغط الاجتماعي، حتى تستقيم على إقلاعها عن الخمر، بل صار الواحد منهم ينفر من المعتمد على الخمر ويعتبره كأنه وثني يعبد صنماً كحولياً، وأصبحت الخمر نفسها في نظرهم نجسة نجاسة عينية كالبول والخنـــزير وسائر النجاسات الأخرى. لكن مجتمع المدينة -كما ذكرنا- كان به أعداد أُخرى من المؤمنين العاديين الذين يحتاجون إلى ما يقوي عزائمهم ويشد من أزرهم ويثبتهم على جادة الإقلاع، فوجدوا هذا التثبيت في تلك القدوة الصالحة الصلبة من المهاجرين والأنصار الملازمين لرسول الله ﷺ، فكان أثر هذه القدوة في المجتمع بمثابة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن طريق التشجيع والاتباع لتلك النماذج السلوكية الراقية. فهذه الأساليب غير المباشرة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصلح كثيراً مع أهل الخير، ممن يريد السير في طريق الهداية، لكنه يحتاج إلى تقوية الإرادة وشد العزيمة، والتأثر بالصور البشرية المثالية في واقع حياته.

لكن المدينة تموج أيضاً بزائريها من الأعراب الذين لا يعلمون حدود ما أنـــزل الله على رسوله، ومنهم المنافقون والجهلاء، وهناك كذلك

طائفة من أهل المدينة مردت على النفاق الكفر، فهؤلاء يرضون المؤمنين بأفواههم وتأبى قلوبهم، يتآمرون مع حلفائهم من اليهود لاسترجاع ما افتقدوه من مال، ومن جاه اكتسبوه من قبل في المجتمع الجاهلي المخمور. ولا بد أن يكون من هؤلاء تجار كانوا يجنون الأموال الطائلة من بيع الخمور وتصنيعها واستيرادها، فهم يتمنون بخيالهم المريض أن ينتكس المجتمع المسلم في حمأة السكر حتى يستعيدوا ما افتقدوه... فمثل هؤلاء وأولئك لا تؤثر فيهم القدوة الصالحة ولا النصح الجميل، فليس في الوجود قدوة أطهر وأعظم من الرسول ﷺ، وكان بين ظهرانيهم، وليس في الوجود أجمل وأرق من آيات الله، وكانت تتلى عليهم صباح مساء غضة طرية... مثل هؤلاء لا يخلو منهم مجتمع، ولا يكف شرهم إلا الأمر الحازم بالمعروف والنهي عن المنكر والبغي من قبل مجتمع إسلامي متماسك مترابط، يُوَقّر فيه أهل الطاعة ويُذَلّ فيه أهل المعصية، ويُؤخذ على يد الظالم المعتدي.

وقد اتّضح لنا جلياً في الصفحات الماضية أنّ البحوث الحديثة أكّدت أنّ غول الكحول لا يمكن القضاء عليه بأنصاف الحلول، كما أكّدت أنّ الانتكاس لا مفر منه إلا بتجفيف المجتمع تماماً من منابع الخمر بيعها والسماح بتداولها والدعاية لها.

لذلك كان الإسلام سبّاقاً في هذا المضمار عندما رفض نبيّه ﷺ -بعد التحريم الشامل للخمر- كلّ المحاولات الصادقة والملتوية التي أرادت أن تسمح بتعاطي قليل من الخمر للتداوي أو للدفء أو لأي غرض آخر.

فكان ردّه ﷺ كحد السيف: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[33]... «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حُرم عليكم»[34].. «إنها ليست بدواء ولكنها داء»[35].. «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر».[36]

وجاء الطب الحديث ليؤكد ما ذهب إليه نبي الإسلام ﷺ في أنّ منافع الخمر العلاجية كلها موهومة بل إنها تزيد الداء استفحالاً، فهي إذن داء وليست دواء، فمن ذلك إنّ من يشرب الخمر لتدفئة جسمه من البرد يشعر في بادئ الأمر بدفء كاذب بسبب توسع الأوعية الدموية السطحية تحت الجلد، لكن هذا الدفء الكاذب سرعان ما يختفي وقد يعرّض الشارب بعد ذلك إلى برد أشد وإلى مخاطر لم تكن في الحسبان.

ويورد العالمان وِلشْ وكَرانت في منشور لمنظمة الصحة العالمية قائمة بالمشكلات الطبية والاجتماعية والقانونية لتعاطي الكحول حيث تلخص هذه الدراسة المئات من أهم الأبحاث الدولية –التجريبية والميدانية– التي أجريت للتعرف على أضرار الكحول وننقل هنا أهم ما ورد في هذه القائمة:

---

(33) رواه جابر.

(34) رواه البخاري.

(35) رواه مسلم.

(36) رواه الطبراني.

## المشكلات الطبية لتعاطي الكحول

سرطان الفم والحنجرة والمريء، التهاب المعدة، القرحة والنـــزيف المعدي،... الداء السكري، الاستئناث والعِنّة "ضعف أو فقدان القدرة على ممارسة الجنس" وضمور الخصيتين،[37] الاعتلال العضلي المزمن، اعتلال القلب، التهاب العصب المحيط، ذهان كورساكوف، التلف الدماغي، الخرف، الكبد المدهنة، التهاب الكبد الكحولي، تشمع الكبد، سرطان الكبد،.. النقرس..، الصرع، الاكتئاب، القلق، الهذيان، الارتعاش، الصرع الناجم عن منع تعاطي الكحول، الذهان أو الجنون الكحولي،.. التسمم الحاد، محاولات الانتحار، إدمان الأجنة[38].

## المشكلات الاجتماعية

الانعزال عن المجتمع، السلوك العدواني، السلوك السلبي، استعمال العنف مع أفراد الأسرة، الاعتداءات الجنسية على الأطفال.. إهمال الأطفال، الحوادث المنـــزلية والصناعية، التغيب عن العمل، الاستدانة والتشرد.

---

(37) نرى هنا أيضاً أكذوبة تناول الخمر لتقوية الدافع الجنسي لدى الرجال، وهي من التصورات الشائعة بين العامة أنّ الخمر قد تساعد الرجل المصاب بالحياء الشديد والخجل المفرط في بداية نشاطه الجنسي، ولكن الاستمرار في تعاطيها سرعان ما يأتي بالعنّة والاستئناث وضمور الخصيتين، وفقدان القدرة الجنسية التي من أجلها يتناول الشخص المخدوع السم الكحولي.

(38) عندما تدمن الأم الحامل على الخمر ينتقل الكحول إلى جنينها فيولد مدمناً.

## المشكلات القانونية

حوادث السيارات ومخالفات قيادتها، الجرائم المرتكبة بسبب السكر كالاغتصاب، السرقة، إلحاق الضرر بالممتلكات، الاحتيال، الخدع، القتل، الاعتداء الجسمي على الغير[39].

إذن فتعاطي الخمر والاعتماد عليها لا يترك جهازاً ولا عضواً ولا نسيجاً في الجسم إلا أصابه بالخلل والأمراض، ومن ثم يصاب المعتمد بالاضطرابات النفسية والعقلية فيختل التوافق ويموت الضمير، وتنحدر الأخلاق والقيم... فأي داء أشد فتكاً من أمّ الكبائر؟!

وهكذا نجد العلم الحديث يصدق الحديث النبوي الشريف بأن الخمر داء وليست دواء، كما يكشف عن زيف كلّ الادعاءات العلاجية التي نسبت قديماً وحديثاً للخمر حتى قال أحد مشاهير الطب النفسي الحديث بأنّ: "الكحول هو السم الوحيد المرخص بتداوله على نطاق واسع في العالم كله"[40].

ومن هنا كان الأمر بالمعروف في اجتناب الخمر والنهي عن منكر تناولها أو بيعها أو حتى لين الجانب لمن يتعاطاها ولو في عقر داره، كان ذلك أمراً حاسماً وتكليفاً إلهياً لا يستقيم المنهج الرباني إلا به ﴿وَلْتَكُنْ

---

(39) برندان ولش وماركوس كرانت: "آثار إنتاج الكحول والاتجار به على الصحة العامة": منشور منظمة الصحة العالمية، رقم 88، جنيف 1985.

(40) الدكتور لويس، رئيس قسم الأمراض النفسية في جامعة لندن، كما استشهد به فكري أحمد عكاز في كتابه: "الخمر في الفقه الإسلامي"، شركة عكاظ للنشر 1982، ص 66.

مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104]. وهذا التكليف لا يتم إلا بقيام سلطة في الأرض تشجع التائبين والمقلعين عن شرب الخمر وتهيئ لهم البيئة الصالحة الودودة ليستقيموا على أمر الله، وترهب الهابطين والمنحلّين والمنحرفين الذين يكرهون الاستقامة ويرون المعروف والنهي عن المنكر إلا بالتضافر مع الجماعة المسلمة المتآخية، المعتصمة بحبل الله، المتعاونة على البر والتقوى، الملتزمة في أمر تحريم الخمر بأحاديث رسول الله ﷺ الواضحة الحاثّة على هذا التعاون.. «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم**»[41].. «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».[42]

إذن فلا تهاون مع متعاطٍ للخمر أو منتكس بعد إقلاع، ولا مجال لقدوة سيئة تترنح في الطرقات، فالتعاون بين السلطة الحاكمة والجماعة المسلمة المتماسكة قائم حتى يردوا الخارج عن إجماع الأمة على نبذ الخمر أو يكف شره ويختفي في جحره، وإنّ أيّ تهاون في هذا الشأن تحت شعار الحرية الفردية أو الشفقة أو أيّ شعار آخر سوف يجرّئ العابثين ويفتح باب الانتكاس والقدوة السيئة رويداً رويداً حتى ينحرف المجتمع

---

(41) أخرجه الترمذي.

(42) أخرجه مسلم.

من جديد ويغرق في بحر الكحول ويستوجب غضب الله، تماماً كما يحدث للسفينة في البحر إذا خرقت في قعرها فالماء يتسرب حينئذ بتدريج لا يشعر به أحد، ويزداد الخرق فلا تلبث أن تهبط في القاع، ولنا في هذه الصورة الواقعية مثالاً نبوياً عظيماً يوضح أهمية النهي عن المنكر في الحفاظ على سفينة الأمّة الإسلامية المسافرة في بحر الزمان والمكان... يقول الرسول ﷺ: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**»[43]. وفي رواية: «**إنّ الذي أصاب أسفل السفينة رجل قال: هو مكاني أصنع فيه ما أشاء**»... وكأنّه يتحدث بلغة اليوم في تقديس الحرية الشخصية.

لذلك يحذر الرسول ﷺ الأمة الإسلامية وهو يحدثهم عن بني إسرائيل بقوله: «**لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وسليمان وعيسى ابن مريم**، ثم جلس رسول الله ﷺ -وكان متكئاً- فقال: **لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً**».[44]

---

(43) رواه البخاري.

(44) أخرجه أبو داود والترمذي.

وبهذا التطبيق الجاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانت الأمة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ خير أمّة أخرجت للناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110].

## ز- منع الانتكاس بتطبيق الحدّ

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقدوة وباللسان وبالضغط الاجتماعي والنفسي مهما كان جاداً قوياً وشديداً صارماً لا يكبح جماح جميع الأفراد في المجتمع حتى وإن كان ذلك المجتمع هو مجتمع خير القرون في المدينة المنورة. فلا بد من وجود بعض الشواذ الذين يحصلون على الخمر بوسائلهم السرية الخاصة، ويتناولونها بعيداً عن رقابة السلطة والجماعة المسلمة الساهرة على نظافة بيئتها. لذلك شرّع الإسلام عقوبة بدنية ونفسية رادعة لشارب الخمر رحمة بهؤلاء المارقين حتى لا ينـــزلقوا في هوة الإدمان، وحفظاً للمجتمع بأسره من أن يَجُرّه إليه هذا الانحراف. فهذه العقوبات والحدود التي فرضها الله سبحانه وتعالى على مرتكبي الكبائر والجرائم هي من كثر الشرائع حفاظاً على مصالح العباد ومعاشهم وسعادتهم في الدارين: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:179]. «**حدّ يُعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحاً**»[45].

---

(45) الحديث رواه الشيخان.

وبالرغم من أنّ الأمير المسلم الصالح ربما يبدو شديداً صارماً في إقامة الحدود، لأنّه لا تأخذه في دين الله رأفة، إلا أنّ هدفه عند معاقبة هؤلاء هو رحمة المسلمين والإحسان إليهم وكف المنكرات عنهم لا التشفي والتعالي، تماماً كما يؤدب الوالد ابنه العاق وكما يعالج الطبيب مريضه بإجراء العمليات الجراحية التي ربما تتطلب بتر أحد أعضائه. فمثل هذه الأفعال، وإن بدت للجاهل والساذج قسوة وعنف إلا أنها الإحسان والرحمة بعينها لكل من كان له عقل راجح وبصيرة نافذة، وفي ذلك يقول الشاعر السوداني[46].

فشرع الله غايتـــه صـــلاح ويقطر رحمة، يفشي سلامـــا
وليس الشرع سيفاً قد تجلى لإرهـــاب اليتامى والأيـــامى
فيسعد في حماه الناس طـــرّا كأطفال العطوف إذا استهاما
فلا يضرب سوى ولد عقوق فلا ينح الصغار به ائتمامـــا
فأي الحكم أفضل من طريق مشـــى فيه النبي بنا إمامـــا
فهذا الرشد يا قومي فقوموا بحـــق الله ترتفعـــوا مقامـــا

وفي تحليل عميق لدور الزجر والردع بالحدود والعقوبة في الحفاظ على بيضة الدين وحقوق العباد يقول الماوردي ما نصه: "... العلة المانعة

---

(46) هذه أبيات من قصيدة طويل ألّفها كاتب هذه السطور بعنوان: "ما قبل الانتفاضة وما بعدها" نشرت في جريدة الأسبوع السوداني: العدد 219، السنة الأولى بتاريخ 1987/4/6، في عدد خاص بعيد الانتفاضة الشعبية السودانية التي أطاحت بالحكم العسكري آنذاك.

من الظلم، لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقل زاجر، أو دين حاجز، أو سلطان رادع أو عجز صاد، فإذا تأملتها لم تجد خامساً يقترن بها، ورهبة السلطان أبلغُها، لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين، أو بداعي الهوى مغلوبين، فتكون رهبة السلطان أشد زجراً وأقوى ردعاً...، ومن المقولات المشهورة: «**إنّ الله لَيَزَعُ بالسلطان أكثر ما يزع بالقرآن**».. ثم لِما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه، ودفع الأهواء منه، وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد، أو بغى فيه بعناد، أو سعى فيه بفساد. وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي، ورعاية وافية، أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء، وتحريف ذوي الآراء، فليس دينٌ زال سلطانه، إلا بُدلت أحكامه، وطمست أعلامه"[47].

يتحدث الماوردي أيضاً عن الزواجر والحدود في الشريعة الإسلامية في كتابه القيم "الأحكام السلطانية"، فيقول: "... الحدود زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر وتركِ ما أمر به لما في الطمع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة، فجعل الله تعالى من زواجر الحدود ما يرفع به ذا الجهالة حذراً من ألم العقوبة وخيفة من نكال الفضيحة ليكون ما حظر من محارمه ممنوعاً وما أمر به من فروضه متبوعاً فتكون المصلحة أعمّ والتكاليف أتم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [(الأنبياء:107]، يعني في استنقاذهم من الجهالة

---

(47) أبو الحسن علي الماوردي: "أدب الدنيا والدين"، تحقيق مصطفى السقّا، دار الكتب العلمية، بيروت 1955، ص 137.

وإرشادهم من الضلالة وكفهم عن المعاصي وبعثهم على الطاعة".. [48] انتهى كلام الماوردي.

## ح- عقوبة شارب الخمر بين الحدّ والتعزير

لقد اتفقت جميع مذاهب المسلمين على وجوب عقاب من يرتكب جريمة الشرب، غير أنّهم اختلفوا في كون هذا العقاب حداً أم تعزيراً، والذين قالوا إنه حدّ اختلفوا أيضاً في مقداره، ففريق يقول بأن الحد أربعون جلدة والفريق الثاني يقول بأنه ثمانون جلدة، لكن جميع الصحابة والتابعين مجمعون على جلد الشارب للخمر أو ضربه، وإنما اختلفوا في العدد، أما ثبوت مطلق الجلد فلا اختلاف عليه، وهذا هو الذي يهمنا في هذا البحث.

أما من قالوا بأنّ حدّ الشارب أربعون جلدة كالإمام الشافعي فقد اعتمدوا على الأحاديث الصحيحة كالحديث الذي رواه مسلم عن أنس بأن النبي ﷺ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد أربعين، كما روى مسلم أنّ أبا بكر رضي الله عنه جَلَدَ الشارب أربعين، فلما كان عهد عمر رضي الله عنه واتسعت الدولة الإسلامية ودنا الناس من الريف كتب إليه خالد بن الوليد: "إنّ الناس قد انهمكوا في الشرب وتحاقروا الحدّ والعقوبة". فاستشار عمر بن الخطاب المهاجرين والسابقين في الإسلام وأجمعوا على أنّ يضرب الشارب ثمانين، وفي ذلك وافق علي بن

---

(48) أبو الحسن علي الماوردي: "**الأحكام السلطانية والولايات الدينية**". دار الكتب العلمية، بيروت 1985، ص 275-276.

أبي طالب بقوله المشهور: "إنّ الرجل إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون"[49]. وقد استنتج الشافعي وغيرهم ممن قالوا بأن الحد أربعون، بأن الزيادة إلى رأي الإمام، وهذه الزيادة يمكن اعتبارها تعزيراً. أما الأربعون الأولى فهي الحد المقرر الذي لا بد منه، فقالوا بأنّ عليّ بن أبي طالب الذي وافق الصحابة على عهد عمر في زيادة العقوبة إلى ثمانين جلدة وربطها بحد القذف، رجع بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى الأربعين تأسياً برسول الله ﷺ، ففي السنن من حديث معاوية بن حصين بن المنذر قال: "شهدت عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد أُتيَ بالوليد بن عقبة فشهد عليه حجران ورجل آخر، فشهد أنّه رآه يشربها وشهد الآخر أنّه رآه يتقيؤها. فقال عثمان رضي الله عنه: إنّه لم يتقيأها حتى شربها، فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أقم عليه الحد، فقام عبد الله بن أبي جعفر فأخذ السوط وجلده وعلي بن أبي طالب يعد، إلى أن بلغ أربعين فقال علي: "حسبك، جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين وكلٌّ سنّة، وهذا أحبّ إلي"[50].

أمّا من اعتبر الحد ثمانين سوطاً كالأحناف ومالك فقد أخذوا بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في خلافة عمر، لكن الذين اعتقدوا بأنّ

---

(49) رواه النسائي والدارقطني في سننه، انظر كتاب عبدالسلام طويلة "**فقه الأشربة وحدّها**"، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة 1986، ص 270.

(50) الشوكاني، "**نيل الأوطار**"، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ، الجزء السابع، ص 157.

عقوبة شرب الخمر ليست حداً وإنما هي من عقوبات التعزير فقد اعتمدوا على أنّ بعض الروايات ذكرت أنّ الرسول ﷺ لم يحدد عقوبة واحدة لشارب الخمر بالرغم من أنّ هناك روايات أخرى فيها تحديد لهذه العقوبة. فمن هذه الروايات التي وردت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر فقال: «اضربوه»، فقال أبو هريرة: "فمنا الضارب بيده والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف، قال بعض القوم أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان ولكن قولوا: اللهم ارحمه وتب عليه»**[51].

وفي رواية أخرى أنّ النبي قال لأصحابه بعد ضربه: «**بَكّتوه**» (أي أنبوه ولوّموه بما يكره من الكلام)، فأقبلنا عليه نقول أما اتقيت الله، أما خشيت الله، أما استحييت من رسول الله؟[52].

وفي رواية أخرى أنّ رسول الله ﷺ حثا في وجه الشارب التراب[53].

واستدل أصحاب رأي التعزير أيضاً بما روي عن ابن عباس بأنّ رجلاً شرب فسكر فرآه الناس يميل في الفج فانطلقوا به إلى النبي ﷺ، فلما حاذى بدار العباس انفلت فدخل على العباس فالتزمه، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فضحك وقال، أفعلها؟ و لم يأمر فيه بشيء.[54]

---

(51) أخرجه البخاري وأبو داوود: انظر الشوكاني: مصدر سابق، الجزء السابع، ص 156.

(52) أخرجه البخاري وأبو داوود، انظر "مجمع الفوائد"، مصدر سابق، الجزء الأول، ص 819.

(53) رواه أبو داوود، المصدر السابق، ص 817.

(54) انظر كتاب "الخمر في الفقه الإسلامي" للدكتور فكري أحمد عكاز، مصدر سابق.

فأخذ مَن رأى بالتعزير –ومن علماء العصر بشكل خاص– بهذا الحديث واستنتجوا منه أنّ حد السكر غير واجب وأنه تعزير غير مقدّر بحدّ. فَرَدّ من قال بالحد على أهل التعزير بحجج مقنعة، فقالوا إنّ اعتماد أهل التعزير على روايات لم يذكر فيها مقدار العقوبة لا يصح لثبوت روايات أخرى حُددت فيها العقوبة بأربعين. فمن المعروف من قواعد الأصول أنّه إذا وجد تعارض بين روايات متعددة وأمكن التوفيق أو الجمع بينها وجب الالتزام بها ولم يقل أحد بالنسخ والترك[55]. أما موضوع عقوبة الشارب فلا يوجد تعارض حقيقي بين الروايات، فهناك روايات لم يذكر فيها المقدار وروايات حددت العقوبة بأربعين، ويؤكد ذلك ما ذهب إليه أبو بكر وعمر قبل زيادته العقوبة إلى ثمانين، وما فعله عثمان رضي الله عنه وعلي كرم الله وجهه.

أما الاستدلال بأن الرسول ﷺ لم يطبق حدّ الشرب على الذي لجأ إلى بيت العباس والتزمه، فلا يدل على أنّ عقوبة السكر غير واجبة وإنما تعزيرية فقط، إنما يدل على أنّ الرسول ﷺ لم يقِم الحدّ لأنّ الجاني لم يعترف أمامه ﷺ بالشرب ولم تثبت عليه الجريمة بالوسائل الشرعية المعروفة، وأن الإمام لا يقيم الحد على متهم بمجرد حديث الناس عنه، وليس له أن يبحث في مصداقية ما يسمعه من أحاديث الناس المتفرقة درءاً للحدود بالشبهات وستراً للمؤمنين. كذلك فإنه لا يحتج بزيادة العقوبة من أربعين إلى ثمانين في عهد سيدنا عمر بن الخطاب على أن ذلك يؤيد مفهوم التعزير للعقوبة، ذلك أنّ العقوبة لو كانت تعزيرية لما احتاج خالد إلى أن يكتب إلى عمر

---

(55) انظر المصدر السابق، ص 138.

رضي الله عنه ولما احتاج عمر إلى استشارة الصحابة. فمن المعروف أن من مقاصد تطبيق الحدود الزجر الخاص للمذنب حتى لا يعود إلى جريمته والزجر العام للناس ليتعظوا بما نال مرتكب الجريمة فيجتنبوها. فإذا لم يتحقق هذا الزجر، يجوز للإمام أن يزيد في العقوبة المقدرة حتى تعمّ هذه الفائدة، فكان عمر رضي الله عنه لما كثر الشرب زاد فيه حلق الرأس والنفي التغريب. يؤيد ذلك أيضاً ما روي من أنّ عمر كان يجلد الشاب القوي المنهمك في الشرب ثمانين جلدة في الوقت الذي كان يجلد فيه الرجل الضعيف الذي وقعت منه الزلة أربعين جلدة[56].

وحتى في الحدود التي اتفق عليها الجمهور كحد أدنى نرى اختلافاً في تغريب الزاني ونفيه بعد إقامة الحدّ عليه، أهو من الحدّ أم تعزير زائد على الحد، ويقال نفس الشيء على جلد الزاني المحصن قبل رجمه وهل هو جزء من الحد أو هو التعزير، ولم يدّع أحد أنّ عقوبة الزنى تعزير وليست حداً بسبب هذه الخلافات الطفيفة.

ونخلص من كل ذلك إلى إعادة تأكيد أنّ رأي الجمهور متفق على أن عقوبة الشارب هي الجلد أربعين سوطاً، على أنّ الثمانين تكون تعزيراً أو أنّ الحدّ هو ثمانون جلدة استناداً إلى إجماع الصحابة.

إنّ تشريع الإسلام للعقوبة البدنية والنفسية لشارب الخمر كانت الوسيلة الناجعة لحماية مجتمع المدينة من الانتكاس، في عهد الرسول ﷺ بأكمله لم

(56) انظر: كتاب "فقه السنة"، للسيد سابق، دار الكتاب العربي، 1983، الجزء الثاني، ص 396.

تطبق العقوبة إلا على سبعة أشخاص فقط[57]. وبالرغم من أنّ هذا النجاح الباهر قد يكون بسبب المستوى الأخلاقي والروحي السامي للمؤمنين في ذلك العهد المبارك، إلا أنّ الدراسة النفسية والاجتماعية للعقوبة البدنية في الإسلام تؤكد أنّ هذا التشريع قد سبق الأساليب النفسية الاجتماعية الحديثة لعلاج الإسراف في شرب الخمر والإدمان التي يستخدمها الاختصاصيون حالياً في المستشفيات والمؤسسات العلاجية. فبعد سنين طويلة استخدم فيها الاختصاصيون النفسانيون وسائل الإقناع والتنفيس والتحليل النفسي وغيرها من الأساليب "الإنسانية" لتخفيف القلق والتوتر لدى المدمنين وعلاجهم اضطروا أخيراً بعد فشل هذه الوسائل إلى تطبيق العلاج العقابي المؤلم عن طريق الصدمات الكهربائية والوسائل الكيميائية واستخدام العقاب النفسي في هذا العلاج، هذا بالإضافة إلى الإقناع المباشر والضغوط الاجتماعية التي فصّلناها فيما سبق، ولأهمية هذا الموضوع ينبغي أن نناقشه في فصل مستقل.

---

(57) العوّا: مصدر سابق.